16

انهيار كامبوديا

ما من بلد عانى أكثر مما عانت أرض الخمير المخضَوْضِرة، نتيجة للصراع في الهند الصينية. وكان الخميـر الذين كانوا يمثلون فيما سلف، مركز حضارة عظيمـة تنشر إشعاعها على مدى كل جنوب شرقي آسيـا قـد دُفع بهم إلى الوراء، عبر القرون. إلى داخل حدودهـم الحالية. وتظل الأنقاض العظيمة الرائعة لعاصمتهم، أنجكوروات، تمثل عهداً على إبداعهم القديم، وعلى هشاشة المطامح البشرية.

ولا نعـرف، علـى وجه الدقـة، من كان يحكم فـي أنجكوروات، أو لمـاذا انهـارت الإمبراطورية وكيف انهـارت، أو يمكـن أن يكون هذا المجتمع الـذي يبدو وديعاً مسالماً تغلب على نزعـة اللاعنف، ثم انحدر، فـي فترات دورية، إلى حالات من تدمير الذات والتعطش إلى الدماء؟ أما ما نعلمه فهو أن الخمير الحمر احتفلـوا بانتصارهم في الحرب الأهلية الكمبودية بقتل ما يقارب بين مليون ومليونين من مواطنيهم (أي بين 15 و30 % من السكان).

ولم تصبح الولايات المتحدة متورطة في كمبوديا إلا عن تلكؤ. فقد ظلت الإدارات الأمريكية المتعاقبة، علـى مـدى ما يقارب عقداً مـن الزمان، ترفض الاعتراف بـأن كل الهند الصينية تمثـل بالنسبة لهانوي، مَيدان معركة واحداً، إذ صرح الجنرال فون نجوين جياب منذ عام 1950 بأن «الهند الصينية تمثل وحدة استراتيجية، ومسرح عمليات واحد، ولذلك فنحن نتولى مهمة المساعدة على تحرير كل الهند الصينية». وبعـد التسويـة الخاصة بلاوس في عـام 1962 تجاهل الفيتناميون تعهُّدهم باحتـرام حياد لاوس. وفتحوا خطـاً للإمـداد (ممر هوشي منه) عبر لاوس وكمبوديا يصل مـداه في أقصى الجنوب إلـى منطقة دلتا الميكونـغ في جنـوب فيتنام. وعندما أدخلوا قوات قتال نظامية من شمالـيّ فيتنام احتلوا ذلك الجزء من كمبوديـا الـذي يمتد على طول الحدود الفيتناميـة الجنوبية، وحولوه إلى منطقة قاعـدة عسكرية. بعد أن طردوا السكان المحليين المتناثرين بأعداد قليلة. وكان ثمة أربع من فرق فيتنام الشمالية تعمل من هناك فـي جنوب فيتنام ودأبوا على العودة إلـى كمبوديا بعد قتل العشرات من الأمريكيين في كل شهر، وإحداث الخسائر البشرية والدمـار، مستخدمين بصفاقة، الوضع المحايد لمضيفيهم المغلوب على أمره لإضفاء الصفـة الشرعية علـى الأراضي التي يلوذ بها ويفزعون إليها، وأصبح الخـرق الفاضح للقانون الدولي هو

الغطـاء للاستشهـاد بالقانون الدولي لحماية القواعد. ومن المدهشـ أن إدارتي كينيدي وجونسون اللتين ألزمتانـا بشـن الحرب البرية في الهند الصينية، وافقتا على التمثيليـة التحزيرية التي تفضي إلى حماية قتلة الآلاف من الأمريكيين عن طريق تقنية العمل بالانطلاق من أرض ذات سيادة لبلد محايد.

وهذه الخلفية ضرورية لفهم تصرفات إدارة نيكسون حيال كمبوديا، بدءاً بما يسمى «القصف السري» وقد وصلت المراجع في هذه المسألة إلى صفة تكاد تكون طقسية لا تمت بصلة، في كثير من الأحيان، إلى الوقائـع التي تؤثر فـي قراراتنا. وقد تطرقت إلى هذه المسائل في مـكان آخر بالتفصيل، ولكن لألخصها هنا بإيجاز.[2]

كان «القصف السري» رد فعل نيكسون على هجوم فيتنامي شمالي (هو هجوم ميني تيت «mini - Tet» الذي شنوه بعد أسبوعين من تسلمه مقاليد السلطة.

كان تنظيميـاً هزليـاً ولم يتخذ بعـدُ أي مبادرة حول السياسة في فيتنام سـواءً أكانت حسنة أم سيئة. وكان كثير من الهجمات ـ إن لم يكن أغلبها ـ يشن من القوات الكمبودية. وبعد أربعة أسابيع من هذا، وما يربـو على الألف مـن الخسائر البشرية الأمريكية، انتقم نيكسون، إذ بـدأ، في آذار 1969 بقصف منطقة حدوديـة بعرض عشرة كيلو مترات (أو ستة أميال). حيث كانت توجد الأراضي التي يلوذ بها الفيتناميون الشماليون. أما الأمير سيهانوك، رئيس الدولة الكمبودية فقد أوشك أن يستدعي هذه الهجمات الأمريكية فـي العـام الفائت، سـواء أكان ذلك علانية، على المـلأ، أم كان بالإشارات على مبعوثـي إدارة جونسون. وأوحـى بأنه سـوف يتجاهل أمثـال هذه الهجمـات لأن السكان الكمبوديين طُردوا من قبـل الفيتناميين الشماليين.

وعلى كل حال فالمرء يُقّيم هذه القرارات إذا شئنا أن نكرر الشائعة التي تفيد أنها كانت انتهاكات لم يجـر الاستفـزاز إليها، للحياد الكمبودي ـ كما فعل بعض النقاد ـ باعتبـار ذلك تشويهاً للتاريخ[3] وكنا قد خططنا في الأصل للرد على احتجاج متوقع من سيهانوك بطلب إجراء تحقيق في مسألة القواعد التي يلجأ إليها الفيتناميون الشماليون وبذلك سلمنا بعمليات القصف. ولكن سيهانوك لم يحتج، بل دعا نيكسون إلى بنوم بنه بينما كان القصف متواصلاً. وتم إطلاع. أعضاء الكونغرس الأساسيين بما في ذلك رؤساء لجان الخدمات المسلحة والمخصصات، والمتحدث ـ وكلهم من الديمقراطيين ـ وآخرين من قادة الكونغرس. ولا أذكر حدوث اعتراضات ولا أي حَثّ على توسيع دائرة المجال السري المكتوم عن الإعلام.

وأخيراً فهذا القصف لم يكن حتى شيئاً سرياً للغاية، إذ كرر الصحفيون الطلب على سيهانوك أن يعلق علـى الأخبار عن الهجمـات الأمريكية، وكان جوابه النموذجي إعادة ما كان قاله لمبعوثي أسلافنا. ومثال ذلـك أن سيهانـوك أجاب في 13 أيار 1969، أي بعد شهرين من بدء عمليـات القصف السرية، عن سؤال صحفيّ بم يقارب تأكيد عمليات القصف، ونفي وقوع أي خسائر في أرواح المدنيين.

ولا تحتـج كمبوديا إلا على تدمير ممتلـكات الكمبوديين وإزهاق أرواحهم، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننـي لا أستطيع الاحتجاج ما لم يجرِ إبلاغي، غير أني سأحتج إذا كان هناك أي تدمير لممتلكات الخمير (الكمبوديين) أو إزهاق لأرواحهم.

وهنـا يوجـد ـ التقرير الأول حول بضعة عمليات قصف بطائـرات B 52 - ، ومع هذا لم أبلغ عند ذلك مطلقاً، لأنني لم أفقد أية بيوت أو مواطنين، لا شيء، ولم يجر الإمساك بأحد في تلك السدود النارية ـ لا أحد، ولا كمبودي واحد.

وفي 22 آب 1969 أخبر سيهانوك ضيفه الزائر، السناتور مايك مانسفيلد (كما يستفاد من تقرير برقي):

لم يكن هناك احتجاجات كمبودية على عمليات قصف في بلاده باعتبار أن هذه العمليات لا تصيب إلا الفيتكونـغ، ولا تمـس القرى الكمبودية أو السكان الكمبوديين، وصرح بأن كثيراً من معلوماته حول عمليات القصـف الأمريكي للمناطق غير المأهولة في كمبوديا جاءت مـن تقارير الصحف والمجلات الأمريكية. وطالب بشدة بتجنب الحوادث التي تمس أرواح الكمبوديين.

وفـي آذار 1970 تمـت تنحية سيهانوك من جراء إجراء مشترك بيـن برلمانه هو وحكومته ذاتها التي كان عينهـا، والتي كان يرأسهـا رئيس الوزراء لون نول. وكانت أسباب الانقلاب مرتبطة، إلى حد جد بعيد بالسياسـة الداخلية الكمبودية ولم يكن للولايات المتحدة ارتباط به، ولا أية معرفة مسبقة (وفي الحقيقة كان رد فعلنا الأول هو تفسير الحوادث التي حدثت في بنوم بنه على أنها مناورة معقدة من قبل سيهانوك) وعندمـا أصرت الحكومة الجديدة على انسحاب كل القـوات الفيتنامية الشمالية من الأراضي الكمبودية، ردت هانـوي بزيادة الانتهاكات الصارخة وبتهديد الحيـاد الكمبودي. وغادرت قواتها الأراضي التي كانت تلوذ بها، واندفعت في أعماق الأرض الكمبودية ، وهددت بالاستيلاء على البلاد.

وللحيلولـة بين هانوي وبين فتح كل حدود فيتنام الجنوبيـة للتسلل الشيوعي وتهديد القوات الأمريكية أثنـاء انسحابنـا، الذي كان قد وصل إلى 150000 جندي في العام ، أمـر نيكسون القوات البرية الأمريكية بتدمير مناطق القاعدة الفيتنامية الشمالية. وفي عملية دامت شهرين، تم تدمير 20000 طن من الأسلحة الشيوعيـة والمركبات والذخائـر والإمدادات الأخرى؛ وتم إغلاق ميناء سيهانوك فيل والذي كان كثير من الإمـدادات تصـل عن طريقه إلى المناطق التـي كانت تلوذ بها القوات الفيتنامـية الشمالية في وجه هذه القوات. ونتيجة لهذا تلاشت حدة الحرب في النصف الجنوبي من فيتنام الجنوبية تلاشياً دراماتيكياً على أن الأمـر الأكثر أهمية على الإطلاق هو أن عدد الخسائـر البشرية الأمريكية هبط على الفور بنسبة تزيد على خمسين بالمئة خلال شهرين وتواصل الانحدار خلال ما تبقى من أيام الحرب.

حدَّ نيكسون العملية الأمريكية حداً لا يتجاوز الثلاثين كيلومتراً، وسحب القوات الأمريكية من كمبوديا بعـد شهرين ـ وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التـي يتجاهل فيها احتجاجات المحتجين المتطرفين.

ونتيجـة لذلك زادت هانوي من إمـدادات الأسلحة للشيوعيين المنتمين إلـى المنطقة (الخمير الحمر). وفي أوائل عام1973 كانت قد نشأت ورطة تحقق فيها إلى حد ما توازن بين القوات الشيوعية البرية الأكثر عـدداً وبين الجيش الكمبـودي ذي القوة النارية المتفوقة والمجهز بالأسلحـة الأمريكية والمدعوم بالقوة الجوية الأمريكية. وفي حزيران1973 أفسد الكونغرس هذا التوازن بخطر الدعم العسكري الأمريكي، وفي آذار1975 قطع كل المعونة الاقتصادية والعسكرية عن كمبوديا.

سبـق أن عرضت في موضع أخر وبتفصيـل مستفيض دوري أنا في القرارات التي لخصتها آنفاً. وبعد ذلـك بكثيـر وربما لأن كمبوديـا كانت البلد الواحد الذي لـم تفتح إدارتا كينيدي وجونسـون أعمالها فيه، وجـه اللوم إلى ما يسمى بالقصف السري الذي صادقت عليه حكومته ضمناً أو بالسكوت عنه، لأرض غير مأهولـة مـن حيث الجوهر وإلـى الجهد اللاحق من أجل دعـم خلفاء سيهانوك على نحـو مكشوف وحمل المسؤوليـة عـن كل الماسي التي أصابت كمبوديا بما في ذلك عمليـات الإبادة الجماعية التي ارتكبها بول بوت. وهذا التعبير الغريب العجيب عن الكراهية للذات ليس له معنى إلا بمقدار ما ينطوي عليه من المعنى إنحاؤنـا باللائمـة في صدد هولوكوست هتلـر على القصف البريطاني لهامبـورغ، ومهما يكن حكم المرء علـى حكمة السياسـات الأمريكية الفردية فالحقيقة هـي أن كمبوديا تم الاستحـواذ عليها من قبل طغمة من القتلة وسفاكي الدماء وذلك في المقام الأول لأن الأمريكيين ربطوا بقاء البلاد بمسرحيتهم الداخلية الخاصة. وحين امتدت الحرب إلى كمبوديا جراء تصرفات هانوي كان المخرج الوحيد أمامنا: إما النصر وإمـا التسويـة السياسية بحل وسط على أسـوأ الاحتمالات، وهي تسوية ستتاح فيهـا الفرصة للسكان غير الشيوعييـن (وربمـا لمناوئي الشيوعية أيضاً) لتقريـر مصيرهم السياسي الخاص بهـم. وبدلاً من ذلك أصبحت كمبوديا ضحية أخرى من ضحايا الحرب الأهلية الإيديولوجية في أمريكا.

وفي مؤتمر إعلامي في 12 تشرين الثاني 1971 كان نيكسون قد اعتبر كمبوديا ممثلة لـ «مبدأ نيكسون فـي أنقـى أشكاله» وكان يعني بهذا أنهـا ستوضع في مركز يسمح لها بالدفاع عـن نفسها بالمعونة المالية الأمريكيـة والمواد العسكريـة، ولكن من دون قوة أمريكية بشرية وكان معارضـو نيكسون قد عقدوا العزم على الحيلولة دون إثبات صحة هذه الفرضية، لأنهم كانوا يخشون من أن يكون مبدأ نيكسون طُعماً يستجر الولايات المتحدة إلى مغامرات تغري بالتصعيد وبالتدخل في النهاية.

وعلـى هـذا فقد شرعوا في وضع العوائق فـي طريق المعونة لكمبوديا بقيـود تشريعية كانت خليقة أن تجعل النجاح مستحيلاً وأن تجعل الانهيار النهائي لكمبوديا أمراً لامناص منه تقريباً:

– أجيـز تعديل فولبرايت للتفويض الخاص «بمخصصات القوات المتاحة» عـن السنة المالية 1971 والذي تم إقراره في 7 تشرين الأول 1970 وجاء فيه أن جنوبي فيتنام والبلدان الحليفة الأخرى لا تستطيع أن تستعمـل المبالغ المخصصة للدعم العسكري أو المعونة من أجل كمبوديا. كما حظّر أيضاً على جنوبي

فيتنام والبلدان الحليفة الأخرى مثل تايلاند تحويل الإمدادات العسكرية التي تم توريدها بموجب الصك إلى كمبوديا وبعبارة أخرى كان من المحظور على جيران كمبوديا تحسين أمنهم بمساعدة كمبوديا بالمعدات الأمريكية وهي المعدات الوحيدة التي كانت متوفرة لديهم.

– حظر تعديل كوبر ــ تشيرش لصك المعونة الخارجية التكميلية الصادر في عام1970 والذي تم إقراره في 5 كانون الثاني1971؛ استعمال الأموال الأمريكية لتمويل «إدخال قوات القتال الأرضي الأمريكية إلى كمبوديا» أو لتقديم مستشارين أمريكيين ولم يقتصر الأمر على حظر القوات المسلحة الأمريكية، بل حظر على المستشارين تدريب الوحدات الكمبودية على استخدام المعدات الأمريكية التي كنا نوردها.

– وضع تعديل سيمنغتون ـ كيز على الصك البديل الخاص بالمعونة الخارجية وما يتصل بها من المعونات، والذي تم إقراره في7 شباط1972 قيوداً صارمة على المدنيين الذي يعملون في كمبوديا وحدد العدد الإجمالي للموظفين والمستخدمين المدنيين في الوكالات التنفيذية في حكومة الولايات المتحدة الذين هم «مواطنون أمريكيون» بمئتين وعدد حاملي جنسيات بلد ثالث بخمسة وثمانين.

– حظر «الصك الثاني المتعلق بالمخصصات التكميلية عن السنة المالية1973» والذي تم التوقيع عليه بعد تلكؤ. ليتحول إلى قانون من قبل الرئيس نيكسون في 1 تموز 1973: استخدام الأموال المخصصة في الصك من أجل «الدعم المباشر أو غير المباشر للأنشطة القتالية» في كمبوديا أو من أجل كمبوديا ـ أو لاوس وفيتنام الشمالية وجنوبي فيتنام أو مقابل سواحل كمبوديا.

– حظر صك التخصيصات المتواصلة عن السنة المالية 1974 الذي تم التوقيع عليه ليصبح قانوناً على النحو ذاته في تموز 1973: استخدام أية مبالغ للتحويل المباشر أو غير المباشر للأنشطة القتالية من قبل القوات الأمريكية في فيتنام الشمالية أو غيرها فوقها أو قبالة شواطئها والأمر كذلك فيما يتعلق بجنوب فيتنام أو لاوس أو كمبوديا».

اشترط صك المعونة الخارجية الصادر في عام1973 والذي أصبح قانوناً في17 كانون الأول1973 ألا تتوفر أموال مفوض بها أو مخصصة وواردة تحت أي فقرة من فقراته لتحويل عمليات قتالية عسكرية أو شبه عسكرية تقوم بها قوات أجنبية في لاوس أو كمبوديا أو فيتنام الشمالية أو فيتنام الجنوبية أو تايلاند. فالكونغرس الذي كان يصوت سنوياً على مخصصات لفيتنام بدا وكأن الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين كانوا يتسللون إلى البلاد بطرق الحيلة والذريعة، ولله لقد كانت المسألة في طريقها إلى أن تمنع هذا التعاقب المتصور في الخيال من أن يتكرر في كمبوديا حتى من قبل حليفة للولايات المتحدة، حتى لو كان ذلك يعني تدمير كمبوديا من خلال هذه العملية. وكانت نتيجة قيود الكونغرس فرص قيود غير مرغوب فيها وتكاد تكون انتقامية سواءً على صعيد المعونة الأمريكية لكمبوديا الفقيرة أم على صعيد المرونة التي كان في وسع كمبوديا أن تستعملها بها، أحتى إلى حد حظر المساعدة بالتدريب والمواد من البلدان الصديقة المجاورة.

وفـي عام 1974 كان قد تم تكريس سقف للمعونـة الشاملة يبلغ 377 مليون دولار من المعونة لكمبوديا وكان كل إنفاق فردي يحسب ضمن هذا المبلغ الإجمالي. ونتيجة لذلك لم يكن من الممكن تقديم الأغذية والمعونـة الاقتصاديـة مـن دون خفض النفقـات العسكرية والعكـس بالعكس. على أن قيـوداً كهذه مكنت الخمير الحمر من البقاء عندما كانوا ما يزالون في طور جنيني وحولت المد شيئاً فشيئاً لصالحهم عندما اكتسبـوا القـوة واشتد عودهم، وقد وصف العميد وليام و. بالمر، رئيس فريق الإمداد بالمعدات العسكرية في كمبوديا في تقريره النهائي كيف أدى هذا إلى الخنق المتصاعد للجهد العسكري الكمبودي. إذ أفضت القيـود المفروضة على التدريـب الأمريكي إلى الاعتماد الزائد على القـوت الجوية الأمريكية وعند حظر هـذا بفعل الكونغرس أصبحت المدفعية الكمبودية والقوة الجوية التكتيكية ذواتي دور محوري على الرغم مـن أنـه لم يكن يسمح لنا ـ بتدريب الكمبوديين على كيفيـة استخدامها. وفي النهاية تعرض حتى الدفاع الكمبودي المحض لصدمة من جراء تصاعد تكاليف الذخائر نتيجة للتضخم وخفض التمويل.

وفـي وجه هذه الحـدود والقيود تدبر الجيش الكمبـودي أمر مقاومة هجوم الخميـر الحمر في فصل الجفـاف عـام 1973 (بمعونة القوة الجوية الأمريكية)، وفعل هذا مـرة أخرى في عام 1974، وهذه المرة بقواتـه الخاصة حصـراً، وذلك، في جزء منه، بالنظـر إلى موقف هانوي الملتبس تجـاه الخمير الحمر. وكانـت هانـوي ترغب في استخدام الخميـر الحمر لطرد البقيـة الباقية من النفـوذ الأمريكي من الهند الصينية. غير أنها سوف تتحول ضد فيتنام بعد الانتصار الكامل.

ولذلـك كانـت هانوي تمسك بزمام الخمير الحمر على مدى الشهـور الثمانية عشرة الأولى. وعلى كل حال فقد غيرت المسار بحلول عام 1974، وجعلت تصب الأسلحة والذخائر ـ ربما باعتبار ذلك جزءاً من هجومهـا العـام وربما لأنها كانت قـد قررت أن تواجه التقصير من قبـل الكونغرس وكانت قد حكمت على حكومة لون نول، وما عاد هناك فائدة تُنْتَظَر من جراء إثارة عداوة الخمير الحمر.

وفي هجوم شمل البلاد بكل عرضها، بدأ في الأول من كانون الثاني، قطع الخمير الحمر خط الإمداد المـؤدي إلى بنوم بنـه وكانت النتيجة المؤتلفـة الناجمة عن ازدياد النشاط القتالـي، وسقوف الكونغرس للمعونـة هـي أن الجيـش الكمبودي بـدأت ذخائره تنفـذ. وبالنظر إلى معـدل النفقات القائـم، ما كانت مخزوناتـه الاحتياطيـة لتدوم على ما بعد آذار. وفي 28 كانون الثاني، طلب فورد من الكونغرس رفع سقف المئتـي مليونـاً دولار من أجل المعونـة العسكرية لكمبوديـا والموافقة على مبلغ إضافي قـدره 222 مليون (ولا أستطيـع أن أقـرر، عند هذه المسافـة، كيف تم التوصل على رقم بمثل هـذه الدقة، فربما كان بعض المسؤولين عن الميزانية قد أدركته روح الفكاهة).

وكتـب فورد، بالإضافة إلـى طلبه الرسمي، رسالة إلى المتحدث الرسمـي باسم البيت الأبيض، كارل ألبرت، كشف فيها عن القضية الأخلاقية بأسلوب بليغ:

أترانـا نزمع، عن قصد وتصميم، أن نتخلى عن بلـد صغير، في وسط كفاحه الذي هو مسألة حياة أو مـوت؟ وهـل قُضي على الولايات المتحدة التي كانت تقف، على الدوام، إلى جانب أصدقائها خلال أصعب الأوقات، أن تحكم الآن بالموت على أمة هي بالنتيجة أمة آسيوية صغيرة تعتمد علينا كل الاعتماد؟[5]

وكنـت أردد صـدى هذا الموضوع في الكثيـر من البيانات الإعلامية. علـى أن السجلات الضخمة لوزارة الخارجيـة واجتماعات هيئة العاملين في البيت الأبيض، تظهر أن هواجسنا الداخلية المتعلقة بشرف أمريكا واحترامها لنفسها ولمصداقيتها، كل ذلك كان يتوافق مع ما قررناه جهاراً وعلى الملأ، لم يكن لدينا برنامج خفـي جيوبولتيكي كنـا نتابع الحرب من أجله، كتب فورد إلى ألبرت يقول : « إن بلدان العالم التي تعتمد علينا مـن أجـل دعمها ـ وكذلك أعداؤهـا ـ سوف تحكم على أدائنـا». وكانت كمبوديا ماثلة فـي أذهاننا على وجه الخصوص، لأنني، حين كنت أتجاوب سكرات موتها الأخيرة، كنت أجري جولات مكوكية بغرض إقناع بلد آخر، صغيـر، صديـق ـ وكان هذه المرة إسرائيل ـ بأن عليها أن تجـازف بشيء من أمنها المادي الطبيعي بالتخلي عن أرض، بصفة جزئية على الأقل، على أساس أشكال التأمين المستمر الناجم عن الدعم الأمريكي.

علـى أن المناشدات من قبلي ومن قبل فورد (إذ لم يكن هناك إلا القليل من المتطوعين الإضافيين) لقيـت الاستقبـال ذاته الذي لقيته بصدد فيتنام ـ بل لقيت منه ما هو الأكثر من ذلك، لأن مصير كمبوديا كان يمكـن أن يُنْحى باللائمة في صدره على تصرفات الإدارات الجمهورية بصورة كاملة. وكانت تعليقات وسائل الإعلام، والكونغرس تردد حجمها في خطين متوازيين ضد المعونة لفيتنام، مع الانعطافة الإضافية التي تفيد أن الاحتضار المتصاعد في كمبوديا كان تُسْتَشْهَد به على أنه سبب آخر لسحب المعونة، بدلاً من أن يكـون سبباً للتوسع فيها، وكانت المصادر الخبيرة إذا سئلت عما إذا كانت كمبوديا تحتاج إلى المعونة الإضافيـة نقـل عنها الجواب بالإيجاب[6] وعلى نحو معاكس كان يقـال إن التوسع في المساعدة فات أوانه وذلـك لأن كمبوديا قد تجاوزت الحالة التي يمكن إنقاذها فيهـا[7] وكان آخرون ما يزالون لا يدركون سبباً لتوسيـع المعونة لعـدم وجود التزام تجاه كمبوديا. وفـي الواقع كان التشريع المنـاوئ للحرب والعائد إلى مطلـع السبعينيات فما بعدها، كان قد حدد أنه لا يتضمن «التزاماً» وفي 13 شباط، 1975 أقدمت صحيفة «بلتيمـور سن» على خطوة غير مألوفة نهائياً بتحريرها الإدارة من الضلوع في الإطاحة بسيهانوك، ولكنها لم تفعل ذلك إلا بحيث تستطيع أن تواصل طريقها لتنتهي إلى استنتاج مؤداه أن على اعتبار أننا لم نتواطأ فـي الإطاحة به فليس علينا من التزام تجاه خلفـاء سيهانوك[8] وليس من شأن المعونة سوى أن تطيل أمد القتـل وسفك الدماء وتمنع الكمبوديين من حل مشكلاتهـم الخاصة بالطرق السلمية[9] ولما كنا لا نراهن على شيء حقاً فقد كان من الخطأ للإدارة أن تخلق انطباعاً مؤداه أن المصداقية الأمريكية سوف تتعرض للأذى إذا سقطت كمبوديا[10]. ولم يكن ثمة جدوى من المساعدة ما لم تستطيع الإدارة أن تضمن التسوية المتفاوض عليها والتي سوف تُعْقب ذلك بسرعة.[11]

بداية السقط

إن الإنشاء الأنيق (والخطأ الفادح) الذي لا يضارعه أي شيء في السوء بالنسبة إلى شعب كمبوديا من استمرار المساعدة الأمريكية العسكرية كان سريع الانتشار. كان يُنظر إلى أن قطع المساعدة العسكرية سينهي المعاناة على أنه أمر بدهي، كما اعتبرت تحذيرات الإدارة من حمام دم محتمل على أنها لا أساس لها، وغير صحيحة، ومرجحة بالخوف المفترض من المعارك المستمرة، أو رفضت بوصفها مؤامرة كارثيّة لإلقاء اللوم على الكونغرس بسبب الخسارة الوشيكة للهند الصينية. باختصار لقد اعتبرت المساعدة المحتجزة عن كامبوديا هي الموقف الإنساني والأخلاقي الوحيد.

جاءت التغطية ذات الجانب الأوحد، بين سائر التغطيات، في صحيفة «نيويورك تايمز» في 13 آذار (مارس)، في مقالة بعنوان «المتمردون الكامبوديون الغامضون» استخف المحرر بالتحذيرات من حمام دم لأسباب مختلفة: فالروايات حول فظائع الخمير الحمر المتعمدة في المناطق التي غزوها كانت أمثلة متوقعة للفوضى العسكرية بعد معارك نزاع ساخنة، أو أنها كانت حسابات خدمة ذاتية لـ(pow) وبذا من المحتمل أن تكون «أقل من مصداقية شاملة». ما إن كسب الخمير الحمر حتى جاء على لسان «بعض الدبلوماسيين والمراقبين المحنكين» أنهم قالوا «لا حاجة لأعمال إرهابية عشوائية». واستنتج الصحفي نفسه مؤكداً «معظم الكامبوديين لا يتحدثون عن مجزرة محتملة ولا يتوقعونها. لما كانوا جميعاً كامبوديين فسيتم إيجاد تسوية». وعلى أية حال فإن القيادة الشيوعية كانت «أكثر وطنية من الشيوعيين»، لقد تضمنت الحركة المتمردة بعضاً من غير الشيوعيين «وربما بعض المعادين للشيوعيين»، وقد وُصف الزعيم الشيوعي كيو سامفان بأنه «مفكر فرنسي الثقافة» انضم إلى الشيوعيين في الستينيات «ليحارب الامتيازات الإقطاعية وعدم المساواة الاجتماعية». وقد قيل: إنه حريص جداً على «استقامته» وقد يكون من المتوقع أن ينتقل بعض الشيء إلى اليمين «إذا ما وصل إلى السلطة». ومن المحتمل أن تكون النتيجة «اشتراكية قومية أكثر مرونة بالنسبة إلى كامبوديا»[12].

مما لا شك فيه أن هذا البيان الغريب في صحيفة ذات شأن قد أثر في النقاش داخل الكونغرس حول إمكانية مساعدة كامبوديا. ولكن الكونغرس ما كان يحتاج إلا إلى قليل من التشجيع كي يخنق كامبوديا. قام بذلك بأقل من قرار واضح يمكن أن يعتبر ملامة فيما بعد من مجرد إخفاق في التصرف تجاه مطالب حكومية مختلفة. في 12 آذار (مارس) رفضت المجموعة «الديمقراطية في المجلس»، بـ 189 صوتاً مقابل 49 صوتاً أية مساعدة عسكرية أخرى لكامبوديا. واضطرت الإدارة إلى القبول بـ «تسوية» وضعتها لجنة فرعية تابعة للجنة الشؤون الخارجية في المجلس «ترأسها النائب لي هاميلتون أعطيت تفويضاً نهائياً حتى تاريخ محدد هو 30 حزيران (يونيو)». تخلصت الإدارة من الإحراج سواء بالتصويت أم بتوقيع هذا التفويض لمدة ثلاثة أشهر لأن «لجنة الشؤون الخارجية في المجلس» بأكملها رفضت في 13 آذار تسوية

هاميلتـون بنسبـة 18ـ15 صوتـاً لذهابها بعيداً ـ ولهذا رفضـت أن تأخذ بالاعتبار أيـة تسوية أخرى. كان النائـب دونالد فريسبر واضحـاً تجاه أهدافه. وقد فضل الانسحاب وقال «تحت ظروف مضبوطة لتقليص الخسـارة فـي الأرواح»[13]. وفـي اليوم نفسـه انضمت «المجموعـة الديمقراطية» في مجلـس الشيوخ إلى خصمهـا في المجلـس بالتصويت بنسبة 38 صوتاً إلـى 5 أصوات لمعارضة مساعـدة عسكرية لكامبوديا ورفضـ المساعدة العسكرية الإضافية لفيتنام بنسبة 34 إلـى 6 أصوات. عند هذه النقطة، حدثت واحدة من (فجوات الثقة) التي تجلد واشنطن نفسها بها، والتي كانت في أجواء ذلك الوقت عذراً حتمياً ومريحاً معـاً لتجنب اتخاذ قرارات. وسرعان ما تبيـن أننا لم نخصص اعتمادات لكامبوديا على الإطلاق. في 14 آذار أفـاد الوزير شليسينغر أن وزارة الدفاع قد اكتشفـت أن هناك مخصصات تقدر بـ 21.5 مليون دولار من السنة المالية 1974 قد وضعت جانباً تحسباً للتضخم ولم تُستخدم. بعبارة أخرى كان لدينا اعتمادات لأسبوعين أو ثلاثة من أجل تسليم الذخائر أكثر مما أخبرنا الكونغرس.

فيمـا يشبه الهستريـا. هذا الكسب غير المتوقع الـذي يمكننا من تحديد فرص الحياة للمحاصرين فـي فنـوم بينه لبضعة أسابيع أخرى لم يستقبل بالراحة أو الابتهـاج بل بالفزع بوصفه كارثة في العلاقات العامة. هل جلبنا على أنفسنا «فجوة ثقة» مُفزعة أخرى؟ كان رد فعل فورد أن أمر بإعلام الكونغرس على الفـور. كمـا لـو أننا نبلّغ اكتشافـاً رهيباً: (ليس مـن المؤذي أن تكـون أميناً حتى في وضـع صعب كهذا). ومـن دواعـي الرحمة أن الكونغرس أجل اجتماعاتـه عند هذه الفترة بسبب أعيـاد الفصح. مما وفر على البـلاد لبضعة أسابيع على الأقل إذلال الجدل العلني حـول أفضل طريقة للتخلص من حليف يائس يعتمد علينـا كلياً. ومع مضـي بعض الوقت عاد الكونغرس إلى الاجتماع في بدايـة نيسان، وكانت كامبوديا بدون مساعدة، وفيتنام تتفكك.

أسطورة الفشل حول التفاوض مع كامبوديا

إن العـذر الممكن للخطوات التي جعلت الكارثة يتعـذر إلغاؤها هو الضغط على الإدارة كي تضع نهاية متفاوضـاً عليها للحرب فـي كامبوديا. والحق أن قطـع المساعدة كان مطروحاً على نحـو متزايد بوصفه أفضـل وسيلة لتسهيل حل سياسي عن طريق الوسيلة السهلة بإزالة قدرة كامبوديا على الدفاع عن نفسها. لم يكن جميع الذين استخدموا هذه الحجة مخطئين. رغم أن النفاق لم يكن مستبعداً. ولكن بالنسبة إلى بعضهـم كان البحث عن دبلوماسية نقية تقوم على خـداع تفاوضي لا يعززه أي نفوذ يعكس حنيناً أمريكياً إلـى الماضـي، من الصعـب أن نستوعب سـوء إدراك أكبر مـن أن المكتب السياسي الصـارم في هانوي والخميـر الحمر المجرميـن يمكن أن يحصلوا علـى انتصار عسكري شامل عن طريـق التسهيل الشفوي الذكـي لمفاوض أمريكي. كان هدف هانـوي هو الانتصار الكامل. وهي لا يمكن أن تتساهل إلا على أساس تـوازن القـوى الذي لا تستطيع أن تأمل في تأخيره، وأي افتراض آخر سيكون بمثابة مراوغة أو تنازل. وفي

كامبوديـا توازن القوى هذا علـى الأرض لا يمكن أن يتحقق فقط بمساعدة قوة جوية أمريكية. وفي غيابها فإن الضغوط الدبلوماسية المتوفرة لن تغير الوضع الميداني للمعركة.

فـي أعقـاب اتفاق باريس مباشـرة، بدا تحقيق توازن عسكـري ما ممكناً. فقـد كان «الخمير الحمر» أضعـف بكثيـر من الفيتناميين الشماليين ولم يكن لديهـم إلا موارد ضئيلة جداً مـن الإمدادات، خلاف هانوي. وكان من شأن مجهود عسكري ضئيل نسبياً، مصحوباً بمحاولة جدية لتدريب الجيش الكامبودي، أن يحقق توازناً عسكرياً بل ربما يحقق تفوقاً عسكرياً. ولما كان قد سُمح لنا بتحقيق توازن عسكري وربما ـ لا سمح الله ـ بالتفوق، فإن المفاوضات كانت تبدو ممكنة.

فكثير من القوى المتنافسة كانت متورطة في كامبوديا. وقد ظل الاتحاد السوفييتي حتى النهاية يعترف بلون نول بوصفه الحكومة الشرعية. وفي الصين فإن الإيديولوجيا أو التاريخ ـ كما قال لي مرة زهو إينلاي ـ قد يدفعنا إلى اتخاذ إجراء لدعم صيني لشمال فيتنام (مستبعداً خطر الاعتقاد بأن الولايات المتحدة لـن تخسـر الحرب في النهايـة). ولكن الجغرافيـا السياسية جعلت الصين تقلق مـن نتيجة تجعل هانوي تسيطـر علـى الهند الصينية كلهـا، وبذا تصبح قوة كبرى على حدود الصيـن الجنوبية. وقد أسرّ لي زهو إينلاي في شهر شباط عام 1973 أن الصين لا تعتبر كامبوديا «حمراء» بالكامل من مصلحتها[14].

كانـت شكوك الصيـن تجاه هانوي متبادلة مع فيتنـام الشمالية. فعندما زرت هانـوي في شباط عام 1973 أخذني لي دوك ثو إلى المتحف التاريخي حيث سجل نقطة باطلاعي على صور تجسد نضال فيتنام الـذي يعـود إلى بضعة قرون خلت ضـد الصين (حدث هذا في غضون أسابيع مـن انتهاء الحرب بوصفي حليفاً ظاهرياً للصين). وكنت قد تحدثت من قبل عن عدم ثقة هانوي العميق بالخمير الحمر.

لـم يكن لدى الأميـر سيهانوك، الذي كان يعيش في المنفى في بيجينغ في مـا يعتقد أنه المقر الأكثر راحـة وأناقـة في تلك المدينة، أوهام تجاه الخمير الحمر: فهـو بعد كل شيء، حكم على زعمائهم بالموت بتهـم الخيانـة قبل أن يُطاح به. وكان سيهافوك يعرف ـ ويعترف أحياناً ـ بأنه لن يلعب أي دور مهم إذا ما حقق «الخمير الحمر» انتصاراً كاملاً.

وداخل كامبوديا كانت حكومة لون نول، عملياً، حكومة سيهافوك الخاصة بدون سيهافوك. إذا شاركت أية قوى غير شيوعية في نهاية متفاوض عليها فإنها ستستبعد من بطانة لون نول، إذ لا يوجد آخرون. وهذا ما جعل سيهافوك يوجه دوماً حقده ضد شخص لون نول وليس ضد أعوانه، كما جعله لا يرفض أبداً فكرة قيام تحالف ما في فنوم بينيه تحت قيادته.

فـي الصيـن في شهر شباط 1973، بعد توقيع اتفاقية باريس بوقـت قصير، طلبت من زهو إينلاي أن يساعـد في التوسط من أجل حـل دبلوماسي لكامبوديا[15]. وفي 27 أيار اقترحنـا الإطار التالي على زهو: عسكريـاً، وقف فوري لإطلاق النار على الأرض، بما فـي ذلك وقف القصف الأمريكي، وسياسياً أن يغادر

لون نول البلاد بعد فترة مناسبة بعد وقف إطلاق النار. بحيث تبقى بقية أعضاء حكومة لون نول للمشاركة في المفاوضات السياسية التي سأشرع بها في بيجينغ مع سيهافوك. قال زهو، مستبعداً موقفه المعتاد القائل إن كامبوديا بعيدة جداً عن بيكين ولا تعرف الكثير عنها: إنه سيرفع الاقتراح إلى سيهافوك في أوائل تموز عندما يعود الأمير إلى بكين في السادس من آب من أجل المشاورة، فالمناقشات مع سيهافوك سيكون لها دور مهم.

أجهضت الخطة عند وضع الكونغرس، في نهاية شهر حزيران، نهاية للقصف الأمريكي يسري مفعوله في 15 آب، ويحظر أي عمل عسكري في الهند الصينية. وهذا ما سحب البساط من تحت أقدام الصينيين والأمريكيين معاً. فقد انهارت التسوية الرقيقة التي سعت إليها كل من بيجينغ وواشنطن عندما ترك الكونغرس الجانب الأمريكي يساوم وحيداً. وفي غضون ثلاثة أسابيع من تصويت الكونغرس أعلمنا زهو أنه لم يعد مستعداً لنقل اقتراحنا إلى سيهانوك انوك وألمح برقة إلى سبب تأجيل زيارتي إلى بيجينغ من 6 إلى 12آب، أي إلى اليوم الذي يلي قرار الكونغرس بحظر القصف ووضعه موضع التنفيذ. لم ينسف هذا القانون كلاً من فنوم بينيه وسيهانوك. ولم يعطل الدبلوماسية الأمريكية والصينية فحسب، بل إنه في رأيي كان بداية خسارة زهو لنفوذه.

إذ كنا بحاجة ماسة إلى تعليمات حول الرغبة في حل دبلوماسي، وما بتنا نفتقد إليه بعد حظر القصف هو الشروط الموضوعية لتحقيق حل ما. فكلما خفّض الكونغرس المساعدة ازدادت ثقة «الخمير الحمر» بالنجاح، وأصبحوا أقل انفتاحاً تجاه نتيجة دبلوماسية. ما كانت لتنقذنا أية حزمة من المهارة التفاوضية من هذه الأزمة.

شجعت هذه الحقائق معظم منتقدينا في الكونغرس والإعلام. إذ كان هناك إلحاح علينا بأن نتخلى عن الحل العسكري من أجل حل سياسي في اللحظة الحاسمة حيث كانت العناصر التي تجعل التسوية السياسية ممكنة قد دمرت. وفي غياب تلك العناصر كانت المطالبة بحل سياسي تصل إلى مرتبة مناقشة شروط الاستسلام.

مع اقتراب النهاية في كامبوديا وبوضوح أكثر فأكثر نشب الجدل نفسه داخل الإدارة. ومع تحصن سفيرايـن في سايغون وفنوم بينيه من معارك مطوقة باستمرار إلا أنه لم يكن بوسعهما أن يفكرا في مسؤوليتهما أو أن يبقيا غافلين عن مهماتهما الشخصية. فكلاهما وجد نفسه في وضع مؤسف. إذ كانا مضطرين إلى أن يشرفا على تصفية سفاراتهما والمخاطرة بجميع مستخدميها وبكثير من الكامبوديين والفيتناميين. ولا سيما أولئك الذين يرمون قرعتهم على الولايات المتحدة. واجه كل سفير انهياراً متسارعاً بشدة وكان عليه أن يمتحن مبادرته وقدرته على الارتجال لأن واشنطن كانت بعيدة جداً وغير واعية إلى حد كبير بمجريات، الأمور محلياً بحيث تعطي إرشادات يومية عملية ذات شأن. وكانت النتيجة

أن كل سفيـر اتخـذ مواقفه الخاصة وشعر غالبـاً بأنه بات متحرراً من عدم احتـرام التعليمات الواضحة مـن واشنطن. ومع هذا فقـد كان الرجلان في تفسيرهما للوضع والفرص مـن أدوارهما يختلفان بصورة درامية.

فـي سايغـون كان غراهام مارتن يتصرف كموظـف رفيع المستوى فـي وزارة الخارجية من المدرسة القديمـة، صـارم وواثق من نفسه، كان مقاتلاً كلاسيكياً من مقاتلي الحرب الباردة. فهو مستعد لأن يأخذ على عاتقه مخاطر كبيرة، لذا كان يتمسك بنظام صارم في سفارته بدون تطبيق القيود ذاتها في تصرفه تجاه واشنطن. وفي أثناء قيامه بواجبات وظيفته كان مارتن يتخذ مبادرات من تلقاء نفسه ما كان ليتخذها مـن هم أكثر حذراً منه قبل مشـاورة واشنطن أولاً. وكان أسلوبه معقداً بحيث إن واشنطن ما كان بوسعها دوماً أن تقرر كيف كان يفسر قراراتها.

بالرغم من خصوصيات مارتن المعروفة جيداً فقد أوصيت بتعيينه في سايغون لأن الكثير بات يعتمد، بعـد اتفاقية باريس علـى المبادرة والتصميم من جانب ذوي المناصـب الأمريكيين. كانت الحاجة ماسة لسفيـر قوي قـادر على الارتجال للقيـام بأعباء منح ثيو الثقـة للقيام بالمهمة الصعبـة المؤلمة التي كان يتعامل معها. وعندما كان في سايغون تصرف مارتن ببطولة وأيد التزام أمريكا بفيتنام جنوبية حرة، ومن أجل إغراء واشنطن بقبول توصياته وتنفيذها كان مارتن يعمل على أن يتوافق تحليله مع أفكاره المسبقة. وكان فيليب حبيب. مساعد وزير الخارجية لشؤون شرق آسيا، والذي عمل سنوات عدة في فيتنام، ويحيل إلى جناح الحمائم، يزوده بالتعديلات.

عندمـا واجه مارتـن كارثة وشيكة عزم على أن يشق طريقه ويدافع عـن قناعاته حتى الثانية الأخيرة مـن اليـوم الأخير. إذ لما كان معتقـداً أن كونغرس الولايات المتحدة قد أخطأ خطـأً جسيماً بالتخلي عن فيتنـام الجنوبية، فقد قـاوم الإعلام التقليدي وحكمة الكونغرس ولم يقدم تنـازلات «للتسويات» الخادعة التـي سكّنوا بهـا ضمائرهم كنت أعلم جيـداً أن رسائل مارتن التحذيرية الكثيرة قـد كتبت لإيجاد سجل يمكن أن ينشر فيما بعد ـ ربما لسوء حظي. كان مارتن يعتبر أن أي نسبة تقل عن مئة في المئة من التأييد بمثابـة خيانـة. ولكن مهمـا كان الأمر فإنها تبين كفاح مارتـن من أجل المحافظة علـى التزامات أمريكا الأخلاقيـة. كنت موافقاً على أهدافه، وإن كنـت لا أوافق دوماً على إمكانية تنفيذها، واعتبرته حليفاً، وإن كان شاذاً أحياناً. وفي الوقت نفسه كان قلبي معه وأنا أراه يخفي ألمه متظاهراً بالشجاعة.

كان السفير جون جانثر دين في فنوم بينيه يمثل جيلاً مختلفاً. فهو وإن كان واثقاً مثل مارتن بصواب آرائـه إلا أنه يهتم كثيـراً في أن يبقى محافظاً على معايير الحكمة التقليديـة. كان متأكداً دوماً أن وسائل الإعـلام تراقـب التزامه بالحـل «السليم سياسياً» ـ أو مـا يطلق عليه «التسويـة السياسية» حتى ولو كانت الظروف الموضوعية المتوفرة لها أحياناً تتبخر.

فهم دين، الوافر الذكاء والاطلاع، جيداً أن قيود الكونغرس على التمويل والنشاطات الاستشارية كان من شأنها أن تدين البلد التي كان معتمدها. وقد أوضح منذ البداية أنه لن يسقط مع السفينة الغارقة. كان دين، كشأن حمائم الكونغرس، يدافع عن أسلوب «سياسي» للخروج من كارثة طُلب منه أن يتصرف تجاهها. لذا فقد بذل كل جهد ممكن من أجل الشروع بالتفاوض، مع إشرافه على طوفان من البرقيات هبط على واشنطن مع إصرار جعلني أشك إلى حد ما في دين، كشأن مارتن إذ كان يبني سجلاً لنفسه. ولكن في حين أبدى مارتن غيرة شديدة في متابعة ما بات بعد كل شيء استراتيجية موثوقة. أخذ دين على عاتقه أن يعدل استراتيجية قومية ويبعدها عن مسرح الأحداث غير المحتمل لفنوم بينه.

كانت استراتيجية دين الحض على مفاوضات الآن مع الخمير الحمر، بوجود سيهانوك، مرة عن طريق الرئيس الإندونيسي سوهارتو، وأخرى عن طريق رئيس الوزراء لي كيوان يو في سنغافورة. لن أراجع تيار اقتراحات تاكتيكية والتي يرافقها فائض متزايد من المطالب من أجل تصرف سريع، بإلحاح من سفارة فنوم بينه. كانت استراتيجية دين الأساسية استبدال الحكومة التي كان قد صادق عليها بكتلة تحالفية من نوع ما على أنها مقدمة لمفاوضات مع «الخمير الحمر».

ولما كنا ملزمين بالتعامل مع الكونغرس يومياً، كنا نحتاج بشدة إلى تعليمات حول خطورة الوضع في كامبوديا، وكنا نشارك دين في رغبته القوية لتيسير مصير كامبوديا. مهما كانت الفرص من أجل نتيجة متفاوض عليها متوفرة ـ وفي ضوء الوضع العسكري وقطع المساعدة التي اعتبرناها ضئيلة، لم نكن نعتقد أن السفير في فنوم بينه كان الشخص المناسب لهم. كان لدينا أوراق ثمينة قليلة للمساومة، الورقتان الرئيسيتان هما المؤسسة العسكرية، والبنية الحكومية برئاسة لون نول، كان الكونغرس يفكك المؤسسة العسكرية، وضغط توصيات دين جاء لتفكيك حكومة فنوم بينه في بداية عملية دبلوماسية غير محددة.

قدّرنا أن مفتاح أية مفاوضات يمكن أن يكون في يد سيهانوك، الذي كان في بيجينغ، كنا راغبين في استكشاف قنوات أخرى، بما في ذلك تلك التي اقترحها دين مثل الاستفادة من سوهارتو أو لي بوصفهما وسيطين. بيد أن دين لم يكن في وضع جيد بالنسبة إلى أي من هذين المسرحين. ومع افتراض أن مفاوضات ما كانت ممكنة، فإن دوره في استراتيجيتنا أن يجعل فنوم بينه تتماسك حتى نجد مفاوضاً راغباً في التفاوض. في 18 شباط،1975، حين كنت أقوم بجولات مكوكية في الشرق الأوسط، أعلمت وزارة الخارجية مايلي:

> قطع دين الآن أشواطاً بعيدة في دعوة زعماء الخمير الحمر العسكريين والمدنيين إلى منزله لمناقشة صريحة مع كثيرٍ من الحماسة لإزاحة رئيس الدولة (كامبوديا) بقدر ما يخصني، إذا كنا سنغادر كامبوديا فسوف نغادرها بكرامة. أرغب في

الإصغاء إلى أية توصية متوافقة مع ذلك الهدف. ولكن المقاربة المجمدة التي يبدو أن دين قد تبناها لن تحل شيئاً. أيده أن يتمسك بسياسة متزنة مدروسة لا تعيق عملنا الإيجابي من جانبنا، ولا تدفعنا إلى تهور.

النجاحات المتتالية لهذين السفيرين هي برهان على أنه من الأخطر كثيراً تحدي حكمة الكونغرس ووسائل الإعلام بالمقارنة مع إرهاق وزير الخارجية. لم يتلق مارتن بعد ذلك أي منصب كسفير لأنه اعتبر من الآن فصاعداً من المستحيل تثبيته. أما دين فقد ذهب سفيراً إلى الدنمارك والهند قبل أن يتقاعد.

نهاية السقط

وكانت استراتيجيتنا هي تفضيل العمل على الاتصال بسيهانوك إما مباشرة وإما عن طريق سفراء موثوق بهم، مثل دافيد بروس وفيما بعد جورج بوش في بكين، أو عن طريق عواصم كان لها بعض النفوذ على الأطراف الكمبودية، مثل عواصم الجزائر أو إندونيسيا. وكنا نفضل سيهانوك إلى حد بعيد ليكون مُحاورنا، لأننا رأينا أن الخمير الحمر يتسمون بالصلابة والعناد تجاه الحل الوسط، وأنهم صمموا على تفكيك بنية فنوم بنه وعلى أن يجعلوا من سيهانوك رجلاً لا علاقة له بالمسألة. وكان ما نعمل على تجنبه هو تدمير حكومة فنوم بنه باعتبار ذلك ثمناً للدخول في المفاوضات ـ كما نبهنا دين إلى ذلك.

وكنا قد طرحنا للمناقشة، في مناسبات عدة خلال عام 1974، الصيغة الأساسية لوقف إطلاق النار والحكومة الائتلافية، ورحيل لون نول، مع القادة الصينيين (بمن فيهم دينغ هسياو بينغ) ومع وزير الخارجية الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، الذي مثل حركة عدم الانحياز في ذلك العام. وحاولنا، بالإضافة إلى ذلك، بحلول عام 1974 أن ننظم مؤتمراً دولياً حول كمبوديا، غير أننا كنا غير قادرين على الخروج بأية فائدة. وفي شباط وآذار من عام 1975 لجئنا على رئيس الوزراء لي كوان يو، والرئيس سوهارتو لاستكشاف إمكانيات التفاوض ــ وكان ذلك راجعاً، في جزء منه إلى حث من دين. ولم يجدا فرصةً لذلك كون أن الحكومة في فنوم بنه تواجه انهياراً وشيكاً.

وحدثت محاولة أخرى للتفاوض في كانون الأول 1974. وتم استهلالها عندما أبلغ الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان، فورد، في قمتهما في جزر المارتينيك باقتناع سفيره في بكين، إتيين مناناكه، بأن الاتفاقية المتفاوض عليها يمكن الوصول إليها مع سيهانوك وسوف تلقى دعماً من الصين. وكانت لدينا شكوكنا في أن الصين سوف تتشغل مرة أخرى بعد سقوط شو أو أنها إذا فعلت ذلك فسوف تفعله عن طريق الوسطاء الفرنسيين. وعلى الرغم من تحفظاتنا فوضنا وزارة الخارجية الفرنسية بمباشرة العمل. وكان حرياً بنا أحرياء أن نمضي قدماً مع سيهانوك بصفته رئيساً للحكومة، ليكون قادراً على أن يحكم حكماً مستقلاً، وكنا نجادل بأنه سيكون عليه أن يدخل عناصر قوية لا شيوعية في إدارته. وكان هذا

يعني، في مجال الممارسة، أعضاء بنية لون نول، وإن لم يكن يعني لون نول نفسه. وكان أية شروط أخرى خليقةً أن تعني الاستسلام والخضوع، ولكي نرتب لهذا لم نطلب وسطاً فرنسياً. وبيّنا متطلباتنا في ورقة رسمية في 24 كانون الأول:

نحن مستعدون للقبول بسيهانوك زعيماً لكمبوديا.

- إذا عاد سيهانوك على فنوم بنه قائداً وطنياً حقيقياً، وليس رئيساً صورياً.

- وليكون سيهانوك زعيماً وطنياً حقيقياً، لا بد أن تكون في حكومته عناصر قوية تمثل كل التيارات الهامة بما في ذلك تيارات البنية الحالية. فكيف يخطط لتحقيق هذا؟ وما هي بنية الحكومة التي يتصورها سيهانوك وما هي طبيعتها؟

لا يمكن استخدام المناقشات لتحطيم الروح المعنوية لدى الحكومة القائمة في فنوم بنه، وإذا كان هناك اتفاقية من حيث المبدأ فمن الواجب تنفيذها على جناح السرعة. ونحن نحبذ أن تتبع الحكومة الجديدة مبدأ الحياد في العلاقات الخارجية.

ولا بد أن يكون هناك ضمان للديمومة في الحل الوسط. ونحن غير مهتمين بحيلة أو ذريعة من أجل تسوية يعقبها بعيد ذلك ثورانٌ آخر.

ولما كانت بكين ماتزال تتألم من تجربتها في السنة السابقة، فقد رفضت حتى أن تناقش الموضوع بحجة أن البلدان الأجنبية لا ينبغي لها أن تتدخل في شؤون كمبوديا ولكي لا يكون هناك تقصير عن إدراك الغرض وليصار إلى إغلاق الباب في وجه المزيد من المناقشات رفضت بكين منح تأشيرة دخول للمبعوث الفرنسي الذي كان يفترض أن يسلم الرسالة المذكورة آنفاً إلى سيهانوك[16]. وبعد سنوات عدا صحفيٌ صريحٌ مخلص محقق إخفاق مهمة مناناكه إلى البيان المشترك الختامي في جزر المارتينيك الذي قيل إن توصيته الخاصة بالمفاوضات بين «الأطراف المتنافسة» قد فُسّر على أنه يتضمن حواراً بين لون نول وسيهانوك.[17] ولكن الدبلوماسية ليست كالقصة البوليسية التي يتخلص أحد الطرفين من الآثار الغامضة للجريمة بينما يفترض في الطرف الآخر أن يحذر الجواب الصحيح. والدبلوماسية الفعلية أبسط وأكثر تعقيداً في الوقت ذاته: فإذا لم تكن تؤدي عملها في فراغ، ولم تكن تعتمد اعتماداً انموذجياً على الكيفية التي تصاغ بها عملية تبليغ معلومات بعينها.

والدبلوماسية تعبير عن التوازن بين المخاطر والحوافز. وقد أصبح سيهانوك مهمَّشاً لأن الوضع العسكري للون نول كان آخذاً بالانهيار، وليس من جراء أيِ لغة خصوصية وردت في بيان مشترك.

لقد أدرك سيهانوك هذا في وقتٍ متأخرٍ إلى حد بعيد. ففي الخامس والعشرين من آذار ـ وبعد أن كان يرفض مبادراتنا على مدى ما يقارب العامين ـ أقام فجأة اتصالاً بطريقةٍ منحت مصداقية كبيرة لحدة ذهنه إن لم يكن لتوقيته.

وفـي رسالـة إلى فورد عن طريـق السفيـر الفرنسي طلب الأميـر المنفي مساعدتنا فيـرد مجموعته الموسيقية الكمبودية والآلات الموسيقية التي كان خلفها وراءه لدى تنحيته عام 1970. وفي 26 آذار 1975 أصدرنـا تعليماتنـا إلى جورج بوش بالسعي إلى عقد اجتماع مع سيهانوك لإبلاغه بأننا سوف نبذل أقصى مـا فـي وسعنا للتجاوب مع طلبه، وسنرسم له بالخطوط العريضة مـرةً أخرى، الناتج الذي ظللنا نقترحه على مدى عامين للمأساة الكمبودية:

لكي تتوفر لك دلائل من أجل هذا الجزء من اجتماعك ينبغي لك أن تستفتح بإبلاغه أننا نظل مهتمين اهتمامـا حاراً وحيويـاً باستقبال أفكاره من أجل وضع تسوية للحرب في كمبوديا. ولذلك فنحن ندعوه إلى انتهـاز هـذه الفرصة لكي يفضي إلينا عن طريقـك بآخر ما خطر في باله بصـدد الكيفية التي يمكن بها وضـع خاتمة للحـرب في كمبوديا بطريقةٍ تحفظ وحـدةَ أمته، وتمكنه من ممارسـة قيادته الشخصية في توحيد شعب الخمير.

وينبغي لك أيضاً أن تشير إلى أننا ما زلنا نعتقد أنّ سيكون من الضروري المحافظة على توازن القوى بيـن عناصر الخمير المتعارضـة، إذا كان مقدراً للتسوية السلمية الحقيقيـة أن تحقق، ومثل هذا التوازن سيكون أساساً لا يستغنى عنه، لا من أجل تحقيق التسوية فحسب، بل للتأكد من أن سيهانوك سيكون قادراً على أن يتحقق من دور القيادة الحاسم الذي نواجهه.

وفي 28 آذار التقى جون هولدريدج، نائبُ رئيس بعثتنا في بكين بفونغ بينغ شن، رئيس أركان سيهانوك، فـي السفارة الفرنسية، وسلمه دعـوةً من بوش لسيهانوك لمناقشة في مكان متفـق عليه بصورة متبادلة. ورفض سيهانوك الاقتراح في 29 آذار عن طريق المساعدِ نفسه الذي اعتاد الاعتذار بأن الأمير لا يرغب في تشويش «الرأي الدولي» بإعطاء حافز للشائعات حول مفاوضة سياسية وشيكة. وعلى أثر ذلك أصدرنا تعليماتنـا إلى بوش لإبلاغ سيهانوك بأننا نجحنا في الحفاظ علـى ممتلكاته الثقافية و أن ينتهز المناسبة لتسليم الجزء السياسي من رسالتنا.

وفي الأول من نيسان التقى هولدريدج بفونغ بينغ شن ونقل جوابه على النحو التالي:

سيكون من الأمور السيئة جداً أن يستولي الخمير الحمر على كل الحكم في كمبوديا، لأنهم «عقائديون جـداً» وسيكون من الأفضل إلى حد بعيد بالنسبة للعالم الحر إذا أمكن إعادة الأمير سيهانوك الذي يتمتع بدعم الفلاحين وشعب فنوم بنه، إلى كمبوديا، وبمساندة القوى العظمى يمارس تحقيق بعض التوازن بين القوى الأخرى. وأشار فونغ إلى أنه يأمل أن تتمكن الولايات المتحدة من إعادة سيهانوك.

ووافقنـا علـى هذا التحليـل ولبث لدينا على مـدى العديد من السنيـن، وكان من الممكـن إنشاء حل «سياسـي» عليه. وكانت المشكلـة أن أولئك الذين دمروا إمكانية التـوازن العسكري قد حكموا على الناتج السياسي بالمصير المحتوم أيضاً.

الانهيار النهائي

أطبـق هجـوم الخمير الحمر الذي كان بدأ في 1 كانون الثانـي، 1975، على فنوم بنه في بداية نيسان عندمـا تـم الاستيلاء على نيك لو ونـغ، آخر موطئ قدم للحكومة فـي أسفل نهر الميكونـغ وأدى هذا إلى تحرير ما لا يقل عن ستة إلى سبعة آلاف أضيفت إلى القوات الشيوعية من أجل الهجوم النهائي على فنوم بنه الذي انقطعت عنها الآن الإمدادات الأمريكية.

ولبثـت القوات الحكومية الباقية تقاتل إلى أن نفـذت ذخائرها، وإلى ما يقارب الأسبوع بعد ذلك. أمّا أنه لم يكن هناك ندرة في عدم الكفاءة، وحتى في الفساد، على الجانب الكمبودي فذلك ما لا يمكن إنكاره، ولكن المسألة كانت تتمثل أيضاً في أنه كان قد تم، بالمساعدة الأمريكية، وعلى الرغم من قيود الكونغرس الخانقـة تحويل قوة كانت من حيـث جوهرها احتفالية، للاستعراضات، في ظل حكم سيهانوك،إلى جيش ظل، على مدى عامين يقاتل الخمير الحمر الشرسين إلى أن تجمدت الأحوال على وضع ثابت.

وفـي أوائل نيسان أصبحت ألـوان التفكير فيما كان عليه الوضع غير ذات صلـة بالموضوع. وذلك أنه حيـن اقتربت النهاية كانت القوة العظمى الأمريكية قـد حولت نفسها إلى متفرج عاجز تستغرقه المتابعة النرجسيـة لجدله الداخلـي الخاص، ولم يكن قد تبقى شيء يمكن عمله سـوى المراقبة المقرونة بالألم، ثم بإحساس متنام بالفزع حين حول الخمير الحمر الانتصار الذي سهَّلته التصرفات الأمريكية إلى إبادة جماعية لشعبهم هم.

أما السفير دين الذي بات الآن يقتصر على مهمته الأساسية، فكان يدير عملية الانسحاب الأمريكي، ويقـوم بـدور الشاهد على التحولات السياسية مهنية عظيمتين. وغـادر لون نول فنوم بنه في نيسان، « في إجازة » ظاهرية. وكان قد تم استهلال عدد من التغيرات بين العاملين على القمة للتحرير من القلق الناجم عـن المرحلة الانتقالية، وربما للاحتفاظ بموطئ قدم للنظام القديـم. وكان مما يؤثر في النفس (ويبعث علـى الشعـور بالعار) أن الكمبوديين كانوا يثقون بالولايات المتحدة ثقـة بلغ منها أنهم كانوا يستشيروننا عند كل خطوة. فحتى في هذه المرحلة المتأخرة وجه القائم الجديد بأعمال الرئيس، سوخام خوي، نداءً مُحزناً في اللحظة الأخيرة إلى فورد في 6 نيسان قال فيه:

لقـد ظـل الشعب الكمبودي منذ عدد من السنين يضع ثقته فـي أمريكا، ولا أستطيع أن أصدق أن هذه الثقـة كانـت في غير محلها و أن أمريكا باتت فجأة تأبـى أن تزودنا بالوسائل التي يمكن أن تمنحنا فرصة للعثور على حلٍ مقبول لصراعنا.

وحيـن كان كل شـيء يوشك أن ينفـرط عقده، بات صوت سيهانوك يُسمع فجـأة، مرة أخرى وكان في هذه الأثناء يؤكد أن حكومة لون نول تعاني آلام الاحتضار،مع اقتران ذلك ببيانات تتسم بالعناد والتصلب، ويرفض فيها أي حديث عن الحل الوسط في اللحظة الأخيرة على أنه «مؤامرة سياسية».

وبعد أن اعتبر كل الوزراء الذين عُينوا حديثاً في فنوم بنه خونة، أكد سيهانوك أن :

المقاومة الكمبودية لن توافق على المصلحة مع الخونة في عصبة سوخام خوي، وبان سوشي وشركائهما[18]

وكانت هذه الكلمات التي كانت تنم عن التعطش إلى الدماء؛ تمثل عربون التقدير الذي بات الآن لا يمكن تجنبه والذي كان سيهانوك يقدمه إلى حلفائه الظاهرين، الخمير الحمر. أما ما كان يفكر فيه في الأجواء الخصوصية فكان مختلفاً كل الاختلاف وقد أفضى به إلينا في بكين بطريقته الموجزة المألوفة.

وحدث لقاء آخر بين هولدريدج وفونغ، وكان هذه المرة بحجة أن سيهانوك كان يريد أن يرسل بعض التسجيلات الكمبودية لفورد تقديراً منه لتوسطنا في فنوم بنه لصالح كنوزه الثقافية. وكانت قد صدرت التعليمات إلى هولدريدج بالإعراب عن التمنيات الطيبة من جانب الرئيس، وترحيبه « بأية رسائل أخرى قد تكون لدى سيهانوك ليرسلها إلينا » وحدث الاجتماع في 10 نيسان قبل الجلاء الأمريكي بثمانية وأربعين ساعة، وسجل فونغ، تبعاً لما يقوله هولدريدج، الملاحظات التالية:

من المهم أن يتم التوصل إلى حل في كمبوديا قبل سقوط سايغون، وإلا فسوف يستولي الفيتناميون الشماليون على كل كمبوديا بالطريقة ذاتها التي استولى بها السوفييت على تشيكوسلوفاكيا. وقرر فونغ أنه كان في هذه النقطة يعبر عن وجهات نظر سيهانوك الشخصية.

إن سيهانوك «عاجز لا حول له» في بكين ولا يقدر على فعل أي شيء في صدد الوضع في كمبوديا. وعلى كل حال لا يريد أن يستولي على البلاد بأسرها.

ومن المستحسن الحفاظ على «الجيش» سليماً في كمبوديا كونَ سيهانوك يتمتع بدعم العسكر ويتمتع أيضاً بدعم الفلاحين الكمبوديين. وأوضح كلير بجلاء، عندما سُئل، أنه كان يقصد بالجيش القوات المسلحة التي تدافع الآن عن فنوم بنه، وليس عن قوات الخمير الحمر.

وكان سيهانوك قد أوجز ـ إذا كان فونغ يتحدث في الحقيقة باسمه ـــ الاستراتيجية ذاتها التي كنا نحاول تنفيذها على مدى عامين وكان سيهانوك بين أحد أمرين، فأما أنه كان يأمل في حدوث ورطة عسكرية سوف يُستدعى فيها باعتباره عامل التوازن الذي لا يُستغنى عنه، وإما أنه كان قد استنتج أن الخمير الحمر كانوا واثقين أنهم ستكون لهم الغلبة بحيث إن أية مبادرة سياسية من جانبه لا يمكنها إلا أن تضعف نفوذه على المدى الطويل. ومن المحتمل أنه كان يتابع كلتا القناعتين في وقتٍ. والآن، وفي الثانية الأخيرة عندما كانت الأوزان المقابلة للخمير الحمر آخذة في التفكك، تبين لسيهانوك أن موقفه ليس بأفضل من موقف بقايا لون نول. وعلى هذا فقد كان يشغل نفسه أخيراً بتحقيق ما كان يمكن أن يكون ممكناً لو أنه كان أكثر صراحة وحزماً وكانت أمريكا أكثر اتحاداً.

قمنـا بمحاولة أخيرة متشنجـة للتجاوب مع رسالة فونغ. وصدرت التعليمـات إلى دين بأن يقترح على القائـم بأعمال الرئيس في كمبوديـا أن يناشد سيهانوك لأن يعود رئيساً لحكومة اتحاد وطني. وفي الوقت ذاتـه صدرت التعليمات إلى هولدريـدج بالاتصال بسيهانوك لإعلامه بهذه المبـادرة، وإذا وافق فليقترح أن يقـوم الصينيـون بترحيلـه جواً إلـى فنوم بنه بطائـرة صينية. علـى أن نهاية حقبة معينـة تقدم نوعاً مـن المختبر لدراسة مـدى صعوبة انتهاك حرمة الأنمـاط الراسخة في التفكير. ففـي ذلك الوقت كانت سيطرتنـا في فنوم بنه قائمة منذ عهدٍ بعيد، وعلـى الرغم من أننا كنا نوشك أن نرحل خلال ساعات، لم نكـن مستعديـن من الناحية العاطفيـة لتقبل ما يتضمنه ذلك ولقد قمنا بهذه المبـادرة المؤثرة حين كان الجيش الكمبودي آخذاً في الانهيار وكانت السفارة الأمريكية في فنوم بنه تحزم أمتعتها لترحل وفي هذا الوقـت، وفـي توافق باعثٍ للانقباض كان الكمبوديون قد نفـدت ذخائرهم بصورة كاملـة وبات الموقف محفوفاً بالمخاطر بحيث صدرت إلى دين المباشرة بالأجلاء مهما يكن جواب سيهانوك. ولو أن المشروع أصـاب نجاحـاً لما وجد سيهانـوك عند عودته أمريكييـن يساعدونه بل كان خليقـاً أن لا يجد سوى قوات عسكرية كمبودية من دون ذخائر.

ووفـر سيهانـوك علينا هذا الحـرج بالإجابة برسالـة تثبت أنه كان إمـا حاد الذهن جـداً وإما فاقداً للاتصـال تماماً. وعندما أخبـر هولدريدج، في 11 نيسان، فونغ بمبادراتنا المطروحة على القائم بأعمال الرئيـس فـي كمبوديا، ادعى أنه مسرور سـروراً بالغاً غير أنه أضاف أن سيهانـوك لا يستطيع العودة على أساسـ نداء وجهه إليـه زعيم كان سماه خائناً من عهد قريب فحسب، ولذلك حث فونغ سوخام خوي على أن يدعـم طلبه بنداءات من قبـل اثنين من الرهبان البوذيين، وأعضاء آخرين من سلك الكهنة، وطلاب، ومـن رجال الجيش، ومن المقيميـن في فنوم بنه على وجه العموم، ومن الفلاحين. وكنا نعلم أنه حتى إذا لـم يفعل فونغ ذلك، متأثراً بإغـراء الاعتقاد باستحالة إلحاق الهزيمة بأمريكا ـ فلن يكون هناك، من بعد أي وقـت متـروك لمثل هذه المناورات الخيالية باعتبار أن سفارتنا ستكون في طريقها على الرحيل في 12 نيسان، أي في اليوم التالي.

وكان ممـا كشف عـن التعارض، حين انسدل الستار علـى كمبوديا، أن واشنطن عـادت أدراجها إلى الشأن البيروقراطي كما كان ذلك مألوفاً. فالإجلاء بالنسبة للضحايا أمر يقطع نياط القلوب، أما بالقياس إلـى أولئك الذيـن ينفذونه فهو قبل كل شيء مشكلة تقنية. وسرعان ما باتـت واشنطن مُستغرقة بالتنافر الدائم بين وزارتي الدفاع والخارجية، ولم تلبث القصص أن تسربت جاعلة بذلك، حتى من آلام احتضار كمبوديا تقسيطاً آخر يُعد لمعركة تنافسية كانت تدور رحاها بين البنتاغون ووزارة الخارجية.

وتكشفـت المناقشـات الداخلية عن تمريـن رسمي من أجل الجـلاء عن سايغون الأكثـر تعقيداً، بعد أسبوعيـن، ولم يكن النزاع يتعلق بضرورة الجلاء، بل كان يتعلـق بتوقيعه وشروطه. أما وزارة الدفاع التي

ستكـون مسؤولة عن التنفيذ، فكانت تريد الشروع في ذلك على الفور، باستخدام طائرة ذات جناح ثابت. وأمـا وزارة الخارجيـة المدعومة من قبل دين، فكانت تفضل الجلاء بطريقـة تقلل من الفزع وتُمكن أكبر عـدد ممكـن من الخمير الذيـن كانوا يعملون معنـا، من الهرب. وفـي 3 نيسان كان هناك قـرار بالجلاء بالتوقيـت الفعلي المتروك للسفير. وقرر دين أن يؤخره أياماً قلائل تجنباً للرعب وابتغاء التنظيم الأفضل للرحيـل. أمـا أشكال التوتر التـي أعقبت ذلك فهي مصورة مـن خلال الحوار التالي فـي الساعة الثامنة صباحاً، في هيئة العاملين بوزارة الخارجية، في 11 نيسان.

حبيـب : وزارة الدفـاع. البنتاغون تحاول إبلاغنا أننـا إذا لم نفعل أشياء معينـة بالسرعة الكافية، فليساعدنا الله، وإذا عرض لهم حادث فسوف يوجهون اللوم إلينا.

كسينجـر : لاشك في ذلك. لقـد قال البنتاغون : إنه خطأكم، ولقد سمعت ذلك ثلاث مرات.. لماذا أخروه، في الواقع..؟

حبيب : لقد تم تأخيره لأن دين جاء برسالة تقول : «لا أستطيع أن أفعل ذلك هذه المرة» ووافق على ذلك كل مستشاريه العسكريين...

كسينجـر : لقد نجمت لنا مشكلة جسيمة في الشـرق الأوسط، ونجمت لنا مشكلة جسيمة في جنوب شرقـي آسيـا وليس هنـاك طريقة نستطيـع أن ننجو بها بـأن نكون تكتيكيين. وأنـا أعرف كل أولئك الذين هم حول المدينة وأعرف موقفهم ـ وإنه إذا كسرت ساق أحد منهم أثناء الجلاء فسيكون ذلك ذنبنا، وسوف يترتب علينا أن نتقبل ذلك.

ومـع ذلك فقد كنا نعـرف أن كل هذه المماحكة كانت خلافاً حول ترتيـب المقاعد على ظهر السفينة الغارقة «تايتانيك». وأبلغنا دين في 10 نيسان أن كلاً من المطار والطريق المؤدي إليه ما عادا آمنين، وأن يبـدأ الإخـلاء بالهيليكبتر فوراً. ولأسبـاب فنية لم يكن من الممكن أن يبدأ الجسـر الجوي إلا في الساعة الثامنـة مسـاء، بالتوقيت المحلي، وفي 12 نيسان، تم إجلاء 82 أمريكيـاً و159 كمبودياً و38 من جنسيات أخرى فيما لا يزيد كثيراً عن ساعتين.

كانـت الرسائـل تُرسل إلى الكمبوديين مـن أعلى المستويـات تعرض عليهم إجلائهم أيضـاً، وكان من بواعـث دهشتنـا وشعورنا بالخجل أن الأغلبية الساحقة رفضت بمن فـي ذلك شقيق لون نول، وهو لون نون، ورئيس الوزراء لونغ بوريت، وكان كلا هذين مسجلاً اسمه في لائحة الموتى التي نشرها الخمير الحمر، وكان رد فعل رون نيسين يتسم بالتفهم والتعاطف: مذعورين. أما نحن فنزمع أن نظل ماكثين، ونقاتل».[19]

أما سيريك ماتاك، رئيس الوزراء السابق، والقائد الوحيد للانقلاب 1970، والذي ما زال في فنوم بنه فقـد عبَّر عن موقف قادة الخميـر الحمر بلغة أكثر نبلاً ورقياً. وفي جواب منه عن عرض بالإجلاء، أرسل مذكرة مكتوبة بخط يده بلغة فرنسية أنيقة، في 12 نيسان، بينما كان الإجلاء يجري على قدم وساق:

عزيزي، صاحب السعادة والصديق :

أشكـر لـك في إخلاص بالغ، رسالتك وعرضك نقلي إلى حيـث الحرية، وأنا لا أستطيع مع الأسف، أن أغـادر بمثل هذه الطريقة التـي تنطوي على الجبن. أما أنتم، ولا سيما بلدكم العظيم، فأنا لم أعتقد قط، لحظة من الزمان، أنه سيكون لكم هذا الموقف الذي يتمثل في التخلي عن شعب اختار الحرية. لقد أبيتم علينا حمايتكم، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال هذا.

وهـا أنتـم أولاء تغادرون وأتمنى أن تجدوا، وبلادكم، السعادة تحت هذه السماء. ولكن فلتذكروا جيداً أننـي قُـدِّر لي أن أموت هنا، في هذه البقعة، وفي بلادي التي أحبها فذلك لا يضيرني لأننا جميعاً مولودون ولا بد لنا أن نموت. ولم أرتكب إلا هذا الخطأ، وهو إيماني بكم (معشر الأمريكيين).

والرجاء أن تتقبل، يا صاحب السعادة، تمنياتي الصادقة، القلبية.

التوقيع سيريك ماتاك

وفي 13 نيسان أبلغ مراسل النيويورك تايمز عن الرحيل الأمريكي، تحت عنوان: «الهند الصينية من دون الأمريكيين، حياة أفضل، لمعظم الناس».[20]

استولـى الخميـر الحمـر على فنوم بنه فـي 17 نيسان، وأعدم لونـغ بوريت على الفـور، كما أعدم كل عضو في الحكومة السابقة كان من المخلفين، وأعدم كل موظفي الحكومة السابقة، وأسرهم في الأسابيع التاليـة، وأُمر المليونـان من مواطني فنوم بنه بإخلاء المدينة والخروج إلـى الريف الذي خربته الحرب، وكان غيـر قـادر على إعالة ساكنيه من أهل المدينة الذي لم يعتادوا إعالـة أنفسهم، وقتل ما بين المليون والمليونيـن مـن الخمير على أيدي الخمير الحمر إلى أن احتلت هانـوي البلاد في نهاية عام 1978 والذي نشبت بعده حرب أهلية على مدى عقد آخر من الزمان.

وأطلقـت النـار على سيريك ماتاك في معدته، وتُرك من دون معونـة طبية، واستغرق الأمر ثلاثة أيام إلى أن مات.

obeikandi.com